

نبذة عن موضوع أطروحة الماجستير

توقفت هذه الدراسة في الجانب النظري منها عند آراء الناقد قدامة بن جعفر في أغراض الشعر وقد كانت الدراسات السابقة في معظمها اعتنت بتتبع أصول المقولات النظرية لقدامة والبحث عن جذورها في التراث اليوناني، ولا تتوقف عند صلة هذه المقولات بالموروث النقدي عند العرب إلا لماماً، ونتيجة لذلك عُدت آراء قدامة في معظمها مستمدة من التراث اليوناني وقد ظهر في هذه الدراسة، وذلك من خلال المقارنة مع ما وجد لدى النقاد العرب السابقين عليه، وجود صلة وثيقة بين كثير من آراء قدامة وما هو موجود في الموروث النقدي السابق عليه من هذه الآراء رأيه في الغلو الذي جاء متقارباً مع جملة من النصوص للمبرد وابن قتيبة تؤكد تفضيلهم للغلو وقد تبين أيضاً في تنظير قدامة للثناء صلته بالجذور العربية فقد انطلق قدامة في تنظيره للثناء من مقولة "إن التابين مدح الميت والثناء عليه"، وهذه المقولة ليونس بن حبيب نقلها عنه ابن سلام الجمحي

وتظهر الجذور العربية أيضاً في آراء قدامة في فصل النسب، فقد جعل قدامة المقياس الذي يُعتد به في النسب الجيد أن تكثر فيه الأدلة على التذلل في الحب، والتهالك في الصباية، وأن يظهر فيه لين الجانب للمحوبة، وأن يتجافى عن الإباء والعزة وهذا الرأي له نظير عند أبي تمام في وصيته للبحثري كما حفظ لنا الموشح آراءً مماثلة لنص أبي تمام عند ابن أبي عتيق والمفضل الضبي وسكينة بنت الحسين وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في فصل النسب

وتبين في آراء قدامة حول التشبيه الذي أثير حوله جدل ليس بالقليل وجود صلة وثيقة بما هو موجود في التراث النقدي العربي فقد عدّ قدامة التشبيه من أغراض الشعر، ولم يكن متفرداً بهذا الرأي فقد سبقه إليه ثعلب والمبرد وكذلك فإن تصور قدامة لطبيعة العلاقة بين طرفي التشبيه التي يشترط فيها أن تكون علاقة اتحاد وعلاقة خلاف وتباين، يوجد له نظير في مقولات الجاحظ والمبرد وابن طباطبا وقد كان موقف قدامة من جودة التشبيه - لاسيما رأيه بقرب التشبيه وتعدد التشبيهات في البيت الواحد - متفقاً مع آراء بعض النقاد السابقين عليه مثل المبرد، وابن طباطبا، وابن قتيبة

ومن هنا يمكن القول إن عدداً من المقياس النقدية التي يصدر عنها قدامة ترجع

إلى جذور عربية عند عدد من النقاد السابقين عليه الذين عبر عنهم قدامة أحياناً بوصفهم "أهل العلم بالشعر" (نقد الشعر، ص 111) أما ما يمكن أن يُرد في تنظيرات قدامة إلى جذور يونانية هو رأيه في أن المديح والرثاء لا يكون إلا بالفضائل النفسية، وعكس ذلك في الهجاء

وثمة نتائج أخرى برزت على صعيد التصور العام الذي وضعه قدامة لأغراض الشعر ففي التنظير للمديح قصر المديح الجيد على المدح بالفضائل النفسية التي هي العقل والشجاعة والعدل والعفة، وما تفرع عنها وما تتركب من هذه الفضائل بعضها مع بعض وقدامة بهذا المقياس خالف ما هو متداول في شعر المديح السابق عليه لذا فقد لاحظت الدراسة أن هذا الرأي لقدامة قد أثار جدلاً كبيراً بين النقاد القدماء والمحدثين بين مؤيد ومعارض فهناك من النقاد من أنكر عليه رأيه مثل الآمدي وابن سنان، وهناك من أيده مع شيء من التحفظ مثل العسكري وابن رشيق وهناك من تبني هذا الرأي وتصدى للدفاع عنه مثل حازم القرطاجني

وفي التنظير للهجاء اعتمد قدامة معيار الفضائل النفسية أساساً للجودة، إذ قصر الهجاء الجيد على سلب المهجو الفضائل النفسية دون التجاوز إلى غيرها من العيوب الخلقية، أو بما جاء من قبل الآباء والأمهات من النقص والفساد وقد لاقى رأيه هذا قبولاً مطلقاً لدى بعض النقاد القدماء مثل أبي هلال العسكري، وحازم القرطاجني أما ابن رشيق فقد وافقه على سلب المهجو الفضائل النفسية، لكنه لم يوافق على حصر الهجاء في سلب تلك الفضائل دون ذكر المعايير الخلقية، أو ذكر ما كان من قبل الأبوين من النقص والفساد إذ لا يراه مقبولاً وقد لاحظ البحث أن تركيز قدامة على فكرة قصر الهجاء على سلب الفضائل النفسية جعلته يُغفل بعض السمات الفنية لهذا الغرض مثل استعمال التهكم والسخرية التي أشار إليها نقاد جاؤوا بعده مثل القاضي الجرجاني ومن ملاحظة خلو شواهد قدامة من الفحش يظهر أن قدامة لا يجبد ذلك النوع من الهجاء الذي يُفحش فيه الشاعر وإن كان لم يذكر ذلك صراحةً وفي التنظير للرثاء

كانت إصابة المعنى فيه عند قدامة أن يجري الأمر فيه على سبيل غرض المديح ، لأن الرثاء مديح للميت وعلى هذا كان الرثاء الجيد عنده هو الذي يستوعب الفضائل النفسية التي يجب أن يقتصر عليها شعر الرثاء كنحو ما اقتصر عليها شعر المديح ويلاحظ هنا أن تركيز قدامة على الفضائل النفسية جعله يغفل من ناحية بعض الفوارق بين الرثاء والمديح ، ومن ذلك أن معاني الرثاء تدور حول الحياة والموت والتأمل في الكون ، وهذه المعاني لا ترد في سياق المدح كما أن العاطفة في الرثاء تختلف عنها في المديح فهي في الرثاء تتسم بالحزن لأنها تتحدث عن الإنسان المفقود في حال الجزع والمصاب ومن ناحية أخرى جاء تنظيره لهذا الغرض موجزاً على خلاف ما ورد في المديح ومن هنا يمكن القول إن تنظير قدامة للمديح والهجاء والرثاء يبدو عليه هيمنة الفضائل النفسية ، تلك الهيمنة التي جعلته يُغفل بعض السمات التي ترتبط بكل غرض من هذه الأغراض وفي تنظير قدامة للتشبيه والوصف لاحظت الدراسة أن هناك تداخلاً بين التشبيه والوصف عند الناقد ، وقد اتضح ذلك في تداخل بعض النماذج التطبيقية التي استشهد بها

وقد سبقت الإشارة إلى أن قدامة في رأيه حول جودة النسيب لم يخرج عن المقياس الذي اعتد به النقاد العرب السابقون عليه وقد لاحظت الدراسة مسألة هامة وقف عليها قدامة وهي انفصال الشعر عن الواقع ، فالشاعر من وجهة نظره لا يُطالب بالاعتقاد وإنما يُطالب بالإجادة في التعبير وإن لم يعتقد ، لأن الشعر إنما هو قول ، فإذا أجاد فيه القائل لم يُطالب بالاعتقاد وهذا الرأي لقدامة له أهميته ، فقد أشارت الدراسة إلى بعض الآراء التي وردت في النقد في العصر الحديث تقترب من رأي قدامة وعلى صعيد المقارنة بين آراء قدامة التنظيرية في نماذجه الستة لأغراض الشعر وبين ما وجد من هذه الأغراض في شعر المتنبي والشريف المرتضى وأبي العلاء المعري وجدت الدراسة عند النظر في شعر المديح ، عند الشعراء الثلاثة ومقارنته بتنظيرات قدامة للمدح ، أن شعرهم في المديح تضمن ذكر الفضائل النفسية ، ومراعاة التناسب بين مقام الممدوح والصفات التي يُمدح بها ، والمبالغة في المدح لاسيما في مدح الملوك والقادة ، كما وجدت فيه المدح بالصفات الخلقية وذكر الأصل والنسب وهذا يعني أن ما وجد في الشعر القديم لم يكثر بتنظير قدامة في الاقتصار على الناحية الخلقية

وفي ما يتعلق بشعر الرثاء فقد وجدت الدراسة أن شعر الرثاء يكثر فيه ذكر الفضائل النفسية للمرثي وتضمن عدة أمور لم يشر إليها قدامة متها

أ- وجود النظرات التأملية حول حياة الإنسان، ومصير الكون، والعجز الإنساني أمام الموت، ومآل الإنسان بعد الموت، فقد كان للمتنبى وأبي العلاء المعري نظرات فلسفية عميقة حول هذه المعاني تساير سياق التأمل في الحياة الذي يثيره ذكر الموت

ب- العاطفة التي أغفل قدامة ذكرها ولكنها احتلت جانباً ملحوظاً في قصائد الرثاء عند الشعراء الثلاثة مع مراعاة اختلاف المعري نظراً لاختلاف موقفه من الموت، حيث عبر المتنبى والشريف المرتضى - على اختلاف في الدرجة - عن صراع مع حقيقة الموت وتقبل الإنسان لها، في حين قبل المعري بهذه الحقيقة واستسلم لها، بل إنه كان يرجوها أحياناً

ج- وجود بعض الأفكار التي ترد عادة في سياق قصيدة الرثاء مثل الدعاء لقبر الميت بالسقيا، والتعزية ومعانيها تدور حول الصبر وقبول القضاء، وهذه المعاني تمتزج بالمديح لذوي الفقيد

أما شعر الوصف والتشبيه فقد اتفق فيه الشعراء الثلاثة مع تنظيرات قدامة في ذكر جزئيات الموصوف لا سيما في نماذج التشبيه غير أن الشعراء أوردوا صيغاً تعتمد الإيحاء بصفات الشيء متجاوزين في ذلك مجرد الوقوف على الوصف التفصيلي الدقيق لجزئيات الشيء الموصوف

وعند مقارنة آراء قدامة التنظيرية في النسيب بشعر الشعراء الثلاثة وجدت الدراسة أن شعرهم قد تضمن أموراً متها الوقوف على الأطلال وما يدخل في إطارها من التذكر لمعاهد الأحبة بالرياح الهابة والبروق اللامعة وطيف الخيال، وهو تقليد شعري ألفه الشعراء العرب كما جاءت صورة الشاعر على الأغلب صورة العاشق المتيم الذي أضناه الحب فأجاد التعبير عن شدة الوجد والتهالك في الصبابة في حين قام جانب من صورة المرأة المحبوبة على وصف الجمال الجسدي، وقام جانب آخر على وصف أخلاقها كما جاء في شعرهم ذكر العاذل، والرقيب، وتصوير اللقاء بالمحبة، ووصف لحظات الوداع والفراق، وهي أمور جرى عليها العرف الشعري عند العرب، ولكن قدامة لم يشر إليها

وبعد الاستقراء العام للنماذج الشعرية عند الشعراء الثلاثة في غرض المديح، والهجاء، والثناء، والوصف، والنسيب ومقارنتها بأراء قدامة التنظيرية في هذه الأغراض لاحظت الدراسة وجود شيء من أثر آراء قدامة التنظيرية على الشعراء المذكورين مما قد يُخالف ما انتهى إليه محمد مندور من أن محاولة قدامة ظلت شكلية عقيمة، وهي لم تدخل يوماً في تيار النقد العربي (النقد المنهجي عند العرب، ص 111).

□

□